البيان

السنة الاولى —— الجزء الرابع

اول يونيو سنة ١٨٩٧

اللغة والعصر

لم يبقَ في ارباب الأقلام ومنتحلي صناعة الانشآء من هذه الأمة من لم يشعر بما صارت اليهِ اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة اهلها والقعود بحاجات ذويها حتى لقد ضاقت مُعجماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين واصبحت الكتابة في كثيرٍ من الاغراض ضرباً من شاقّ التكليف وباباً من ابواب العنت واللغة لا تزداد الّا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعّب طرق التفنن في المخترعات والمستحدَثات الى ان كادت تُنبَذ في زوايا الإهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوالي ومسّت الضرورة الى تدارك ما طرأ عليها من الثُلَم قبل تمام العفآء وقبل ان ينادي عليها مؤذّن العصر سبحان من تفرّد بالبقآء ويُختَم على مُعجَماتها بقصائد التأبين والرثآء

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنهـا اغزر الألسنة مادةً وأوسعها تعبيراً وأبعدها للأغراض مُتناوَلاً وأطوعها للمعاني تصويراً قد أفضت اليوم الى حالٍ لو رام الكاتب فيها ان يصف حجرة منامهِ لم يكد يجد فيها ما يكفيهِ هذه المؤونة اليسيرة فضلاً عما ورآء ذلك من وصف قصور الملوك

والكبرآء ومنازل المترفين والأغنياء وشوارع المدن الغنّآء وما ثمَّ من آنية وأثاث وملبوس ومفروش وغير ذلك من اصناف الماعون وأدوات الزينة مما لا يجد لشيء منهُ اسماً في هذه اللغة ولا يكون حظ العربيّ من وصفهِ الا العِيّ والحَصَر وطيّ لسانهِ على معانٍ في قلبهِ لا يتسنى لهُ ابرازها بالنطق ولا يجد سبيلاً الى تمثيلها باللفظ كأنّ المقاطع التي يعبَّر بها عن هذه المشخَّصات لم يُخلق لها موضعٌ بين فكَّيهِ وليست مما يجري بين لهاتهِ وشفتيهِ فعاد كالأبكم يرى الأشيآء ويميّزها ولا يستطيع ان يعبّر عنها الاّ بالإشارة ولا يصفها الاّ بالإيماء

ويا ليت شعري ما يصنع احدنا لو دخل احد المعارض الطبيعية او الصناعية ورأى ما ثمَّة من المسميات العُضوية وغير العُضوية من انواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعاين ما هناك من الآلات والأدوات وسائر اجناس المصنوعات وما تتألف منهُ من القِطَع والأجزآء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات

ثم ما هو فاعلٌ لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية والفنون العقلية واليدويّة وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلاً ولا دقيقاً الاّ تدلّ عليهِ بلفظهِ المخصوص

لا ريب أنّ الكثير من ذلك لا يتحرك لهُ بهِ لسان ولا يعهد لهُ بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبّر بها عنهُ ولا يغنيهِ في هذا الموقف ما عندهُ من ثمانين اسماً للعسل ومئتي اسمٍ للخمر وخمس مئة للأسد وألف لفظة للسيف ومثلها للبعير وأربعة آلاف للداهية وما يفوت الحصر لشيء آخر حرص مؤلف القاموس على استقصآء ألفاظهِ حتى لم يكد يذكر مادةً الاّ وفيها شيء يشير

اليهِ ويدلُّ عليهِ

على أن اللغة مرآة احوال الأمّة وصورة تمدّنها ورسم مجتمعها وتمثال اخلاقها وملكاتها وسجلّ ما لها من علوم وصنائع وآداب وانما تضع منها على قدر ما تقتضيهِ حاجاتها في الخطاب وما يتمثل في خواطرها او يقع تحت حسّها من المعاني . ومعلومٌ أن العرب واضعي هذه اللغة كانوا قوماً اهل بادية بيوتهم الشعر والأديم ومفرشهم الباريّ والبِلاس ولباسهم الكساء والرداء وأثاثهم الرحى والقِدر وآنيتهم القعب والجفنة الى ما شاكل ذلك مما لا يكادون يَعدُونهُ في حِلٍّ ولا ترحال فأين هم وما نحن فيهِ لهذا العهد من اتساع مذاهب الحضارة والاستبحار في الترف واليسار وكثرة ما بين ايدينا من صنوف المرافق وانواع الاثاث والزخارف وما نحن فيهِ من التفنن في احوال المجتمع والمعاش فضلاً عما بلغ اليهِ اهل هذا العصر من التبسُّط في مناحي العلم والصناعة مما كان اولئك بمعزلٍ عن جميعهِ الاّ ما حدث بعد ذلك في عهد استفحال الاسلام مما ذهب عنا أكثرهُ وما كان فيهِ لو بلغ الينا الا غناء قليل

ومهما يكن من حال اولئك القوم وضيق مُضطرَب الحضارة عندهم وما نجد في ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن فلا يتوهمنَّ متوهمٌ أن ذلك واردٌ على اللغة من هرمٍ ادركها فتعد بها عن مجاراة الاحوال العصرية واناخ بها في ساقة الالسنة الحاليّة فان معنى الهرم في اللغة ان يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت الفاظها عنها ثم تضيق اوضاعها عن احداث الفاظٍ تؤدّى بها تلك المعاني فيطرأ على اللغة النقص حيناً بعد حين الى ان تعجز عن أداء اغراض اهلها ولا تبقى صالحةً للاستعمال وحينئذٍ فلا يبقى الاّ أن يُلقَى حبلها على غاربها او يستعان بغيرها على سدّ ما عرض فيها من الخلل بما

يغيّر من ديباجتها وينكّر اسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن وتصير على الجملة لغةً اخرى

وليس بمنكرٍ أن ما وصفناهُ من هذه الحال يشبه في بادي الرأي ما نشاهدهُ من حال لغتنا اليوم وما لم نزل ننعاهُ عليها منذ حين من تقصيرها عن الوفآء بمطالبنا العصرية الاّ أن ذلك اذا استقريت اوجههُ واسبابهُ وسبرت غور اللغة في نفسها وقست مبلغ استعدادها علمت انهُ ليس منها في شيء وايقنت انها لا تزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها وأن فيها بقيةً صالحة لأن تجاري اوسع اللغات واكثرها مادةً ولكن ما ادركها من ذلك واردٌ من قِبَل الأمة وتخلفها في حلبة الحضارة والمدنية اذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم وانما هي عبارةٌ عمّا يتداولونهُ بينهم لا تعدُو ألسنتهم ما في خواطرهم ولا تمثّل ألفاظهم الاّ الصُوَر ما في اذهانهم . وبديهيٌّ أن اللغة لم توضع دفعةً واحدة وانما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء على قدر ما تدعو اليهِ حاجة المتكلمين بها وقد اختصت هذه اللغة بمزيةٍ عزّ أن توجد في غيرها وهي أن اكثر ألفاظها مأخوذٌ بالاشتقاق اللفظيّ او المعنويّ بحيث صارت الى ما صارت اليهِ من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيهِ لغةٌ على كونها من اقلّ اللغات اوضاعاً الا انها من اكثرهنّ صيغًا وأبنية وهو السرّ في قبولها هذا الاتّساع العجيب فضلاً عما فيها من تشعب طرق المجاز على ما سنعود الى بيانهِ بالتفصيل

واعتبر ما ذكرناهُ من ذلك بالرجوع الى ما كانت عليهِ اللغة زمن الجاهلية وفي صدر الاسلام ومقابلتها بما بلغت اليهِ على عهد الخلفآء من بني العبّاس بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح وتنبُّه الأمّة لطلب العلوم وتبسطها في فنون الحضارة بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية الى ابعد مذاهب المدنية الشائعة

لهدم ذلك لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً اعجمياً[١] ولا اضطرّوا فيها الى وضعٍ جديد ولكنها خدمتهم بنفس اوضاعها التي وضعتها العرب فاشتقّوا منها ما لا عهد بهِ للعرب على وجهٍ الذي نقلوهُ اليهِ ولم تُكلم بهِ اصلاً حتى احاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان وادخلوا كثيرًا من مصطلحات الامم التي اجتاحوها شرقاً وغرباً وزادوا على ذلك كلهِ ما استنبطوهُ بأنفسهم واللغة مشايعةٌ لهم في كل ما اخذوا فيهِ لم تنضب مواردها دونهم ولا رأينا من شكا منها عجزًا ولا قصيرًا الى ان ادركهم من تبدُّل الأطوار وغارات الأقدار ما وقف بهم عند ذلك الحدّ فوقفت اللغة عند ما نراهُ فيما وصل الينا من كتبهم وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأُمّة وتتابعت دواعي الدمار حتى اندرست أعلام حضارتها وذهبت علومها أدراج الرياح فزال اكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمّةٍ متمدنة ولا هو اهلٌ لأن يُبلَغ بهِ ما منزلتهُ تلك. ولذلك فان كان ثمة هرمٌ فانما هو في الأُمّة لا في اللغة لان ما عرض لها من الهجر والاهمال غير لاحقٍ بها ولا ملحقٍ بها وهناً ولا عجزًا وانما هو عجزٌ في ألسنة الأُمّة ومداركها وتأخرٌ في احوالها واستعدادها ولو صادفت من اهلها البقآء على عهد اسلافهم من السعي في سُبُل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم تقصر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم الى مجاراة العصر الحاضر

ولقد أتى على اللغة مئاتٌ من السنين بعد ذلك لم يُزَد فيها حرفٌ بل لم

١ يستثنى من ذلك كتب الطب فانهم تساهلوا فيها بنقل كثير من اسماء العقاقير والمواد الطبية واسماء الامراض وغيرها بلفظها الاعجمي لان بعضها لم يهتدوا الى مرادفه بالعربية وبعضها لا مرادف له عند العرب فلم يضعوا لها لفظاً لما سيأتي في موضعه من ان اسماء الجواهر واشباهها لا تنقل على الغالب الا من طريق التعريب

يكد يُحفَظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على اهلها من الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم حتى عادت حوائج كثير من اهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدويّ والأكّار وما دامت المعاني التي يعبَّر عنها باللغة معدومة فلا سبيل الى بقاء الألفاظ الدالّة عليها اذ اللفظ انما يُتّخَذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس فلا يكون الاّ على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كلهِ ذهاب ما كتب المتقدمون بعضهِ بالاحراق كما تمّ في مكتبة قُرطُبة وكأنّ هذا في مقابلة ما وقع من مثلهِ بالاسكندرية وفارس . . . وبعضهِ بالاجتياح والنهب فلا بقي في مكانهِ فينتفع بهِ المتأخر ولا احتفظ بهِ الذي نهبهُ لجهلهِ قيمتهُ وبقي الشيء اليسير نجدهُ اليوم في مكاتب الاعاجم واكثرهُ مما اشتُري من ايدينا بالذهب . . . فلا غرو ان نشأ عن تلك الاحوال كلها ذهاب هذه اللغة من ألسنة الاعقاب حتى لو رام احدنا اثارة دفائنها وتعهدُها بالتجديد والاحياء لما وجد منها في البلاد الا الشيء النزر لا يعدو في الغالب علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد اهل بلادنا يحافظون على سواهُ

ستأتي البقية

السوريون

سوريا التي لعبت بها يد الغيَر وبجعتها طوارق الحدثان بعد العين بالاثر هي القطر الذي كستهُ الطبيعة حلة الجمال فمزقتها يد الانسان وخصتهُ بمزايا تفرّد بها عن الامثال فعادت عليهِ بالخسران وتباب السكان جوّ صافي الاديم لا يكفهرُّ الا ليجود السحاب بالقطر ويترقرق ماء العيون على حصباء كالدرّ